

تجدد الإساءات المسيحية وتصريحات البابا.. أهدافها وآثارها

أ.د. / جعفر عبد السلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

إن الهجوم على الرسول ﷺ ليس جديدا وإنما هو قديم، وجدت بذوره على ألسنة الكفار والمشركين منذ أن بعث في مكة ولم يتوقف هذا الهجوم حتى الآن، وإن اختلفت أساليبه والطرق التي يتم بها في كل مرحلة من مراحل التطور. في البداية اتخذ الهجوم شكلا مباشرا حيث كان أول من هاجم الرسول، عمه أبو لهب، فعندما وقف الرسول ﷺ على جبل الصفا يدعو قومه إلى الإسلام فذكر لهم بأنه الصادق الأمين عندهم إذ قال لهم: إذا أخبرتكم أن خيلاً بخارج الوادي ستقوم بالاعتداء عليكم فهل أنتم بمصدقني؟ قالوا بلى، ما علمنا عليك كذبا ولما قال لهم أنه نبيهم الذي أوحى إليه بين يدي عذاب أليم، فإذا بعمه أبو لهب يقول له، ألهذا جمعتنا، بش ما جمعتنا عليه، وقد تكفل القرآن الكريم بالرد على أبي لهب، حيث قال تعالى: ﴿تَبَّ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَعَىٰ نَارًا نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ ۝ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مِّسَدٍ ۝﴾ [المسد: ١-٥]. لقد رد القرآن نفسه على أبي لهب وتوعده هو وزوجته التي - اشتهرت بوضع الشوك والحطب عليه ﷺ وفي طريقه - بعذاب شديد في الآخرة.

وطوال ثلاثة عشر عاماً قضاها الرسول ﷺ في مكة لم يخل يوم من التعدي عليه بالقول وبالفعل معاً، حيث انتهت هذه الأعوام بمؤامرة دبرها حكام مكة وكبار القوم فيها لاغتيال الرسول ﷺ بسيوف شباب أقوياء اختارهم القوم من كبار القبائل والبطون التي تعيش في مكة لكي يتفرق دمه بين القبائل، ويهمننا هنا تتبع مختلف الافتراءات القديمة ضد النبي وضد الإسلام. وسنعمد على القرآن الكريم في استعراض هذه الصور.

يقول سبحانه وتعالى في سورة الفرقان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزوراً ۝﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ۝ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾ [الفرقان: ٤-٦].

فهنا اتهام صريح للرسول بأنه اخترع القرآن الكريم، أي أن القرآن ليس رسالة إلهية،

وإنما هو متحل من الرسول وعلمه إياه آخرون، مثل الراهب بحيرا الذي قابله مرة أو مرتين في رحلاته التي كان يقوم بها إلى الشام مع أعمامه، ولا يمكن أن تكون مثل هذه المقابلات العرضية - والثابت أنها تمت قبل بعث الرسول ﷺ - كافية لإعطاء الرسول ﷺ كل هذه السور والآيات التي يتضمنها القرآن الكريم، وكل هذه المعلومات التي أنزلها الله على النبي ﷺ ضمناً ونطق بها في السنة القولية أو عمل بها في السنة الفعلية.

وكانوا يشيرون إلى صهيب على أنه هو الذي يعلم الرسول ويلقنه القرآن، والقرآن الكريم رد على ذلك بقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

والواقع أن دعوى انتحال القرآن دعوى قديمة ولكنها تتجدد حتى الآن. وللأسف فإن المستشرقين يجددون هذه الدعوى حتى الآن وهذه الفرية انتقلت بشكل مكثف في الثقافة الغربية بشكل عام وللأسف تضمنتها المناهج الدراسية الغربية في أغلبها. ولقد حضرت مؤتمراً نظمته وزارة التعليم في إحدى مدن الشمال الإيطالية وهي مدينة (سدنة) وقال أحد الأساتذة الذين يشاركون في تأليف الكتب التي تدرس في المدارس الإيطالية: عادة تأتي المعلومات عن الأديان في كتب التاريخ أنه كتب بخط يده أن القرآن تأليف النبي محمد ﷺ وأنه بعد مراجعة ومقابلة العديد من العلماء المسلمين الذين يثق بهم، قد تبين له خطأ ما كتب، وهذا غريب في الوقت الذي نميز الغرب علينا على الأقل في الوقت الحاضر بالموضوعية وبتقصي الحقائق جيداً قبل تسجيلها، وهذا المؤلف نفسه اعترف بأنه وضع الكثير من الرسوم التوضيحية الخاطئة عن الإسلام وتبين له فيما بعد أنها غير صحيحة.

فالادعاء ضد النبي محمد ﷺ بأنه ليس رسولا من عند الله، هو ادعاء قديم، قاله الكفار أولاً وروج له المستشرقون، ولا زال أكبر التهم وأعظمها إفكا حتى الآن.

أما الافتراءات الأخرى القديمة فإننا نذكر منها ما يقول القرآن الكريم ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا...﴾ [الفرقان: ٧]. وللأسف هذه الدعوى الخبيثة لازالت تتردد حتى الآن. لقد كان لكل نبي معجزات حسية اختلفت من رسول إلى آخر وأن سيدنا عيسى عليه السلام قد آتاه الله

أكبر قدر من هذه المعجزات الحسية، وكذلك موسى عليه السلام. كان عيسى يرى الأكمه ويحيى الموتى، وينبئ الناس بما يدخرون في بيوتهم. وكان موسى يلقي عصاه فتتحول إلى حية ضخمة تخيف الناس وتلقف ما حاول السحرة صناعته من حبال وعصى كانت تتحول في نظر الناس إلى ثعابين. أما الرسول محمد ﷺ فكانت معجزته الكبرى هي القرآن الكريم الذي أخبر بكثير من الأحداث القديمة والأحداث التي وقعت فيما بعد مثل التنبؤ بأن الروم سيغلبون الفرس، وكذلك التنبؤ بانتصار الإسلام وإظهاره على الدين كله، بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]. كذلك تنبأ الرسول ﷺ باستخلاف المسلمين في الأرض، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

وقد قام المرحوم الدكتور طه حسين بتتبع الكثير من الصحابة الكبار في حياتهم وأعمالهم قبل الدخول في الإسلام وبعده، وبين صدق وعده الله لهم، طبق ذلك على عمار بن ياسر، وعلى بلال بن رباح، وعلى صهيب الرومي وسلمان الفارسي هؤلاء الذين انتقلت حياتهم من العبودية والمهانة، إلى قمة المجد والسلطة والصدارة للمجتمع الإسلامي ولدولة الإسلام الكبرى بعد ذلك.

دعوى السحر والتهديان:

قال الله سبحانه وتعالى مشيراً إلى هذه الدعوى ومفنداً لها ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلَ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ٨-١١] وللأسف فإنه قد ورد في بعض كتب السنة أن الرسول قد سحرته امرأة يهودية وألقى بالسحر في أحد الآبار في المدينة وإن الرسول تأثر بذلك. وهذا القول لا أساس له من الصحة في تقديرى، ومهما كان الذى أورده، فإن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ النبى ﷺ بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦].

دعاوى البابا بنديكت السادس عشر في محاضراته التي ألقاها يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦ في جامعة ريجنز بورج بألمانيا:

مما يؤسف له أن البابا ألقى محاضراته عن العلاقة بين الإيمان والعقل في هذه الجامعة اللاهوتية وإذا به يقحم الإسلام فيها بعبارات سيئة تدل على أنه لم يدرس الإسلام ولم يفهمه.

والعبارة منقولة من كتاب أصدره الأستاذ عادل خوري وهو لبناني الجنسية ويشرف على إصدار موسوعة تحت عنوان "المسيحية والإسلام في الحوار والتعاون" هو وقسيس آخر يدعى مشير باسيل عون^(١).

والأستاذ خوري هو الذي أورد الحوار الذي دار بين القيصر البيزنطي مانويل الثاني وبين أحد المثقفين المسلمين عام ١٣٩١ م أي في أواخر القرن الرابع عشر.

ونقل من هذا الحوار ما أثار اهتمام البابا، وجعله يحكم على الإسلام بأنه قرين الإرهاب، فالقيصر مانويل الثاني يسأل محاوره "أرني الجديد الذي جاء به محمد، إنك لن تجد إلا أشياء شريرة وغير إنسانية مثل أمره بنشر الدين الإسلامي بحد السيف، وهذا أمر يتناقض مع جوهر الله وجوهر الروح".

الأستاذ خوري يتقن الألمانية ويكتب بها والبابا بنديكت السادس عشر ألماني قرأ كلام خوري بالألمانية، ويعتمد عليه، رغم أن العديد من المفكرين الألمان كتبوا بالألمانية ولم يكلف سيادته وهو الأستاذ الجامعي بأن يرجع إلى أي منهم، رغم أن بعضهم منصف بل ودخل الإسلام عن قناعة كاملة، مثل الأستاذ مراد هوفمان.

(١) تنشر هذه الموسوعة المكتبة البوليسية بجنوب لبنان، والعدد الأول فيها صدر بعنوان "العدل في المسيحية والإسلام وشارك في الكتابة فيه من المسلمين الدكتور محمود حمدي زقزوق، والدكتور رضوان السيد من لبنان والدكتور سعود المولى. ثم توالت الأعمال في هذه السلسلة بعد ذلك. وبعض ما ينشر فيها عن الإسلام حسن وطيب والكثير منها شيء من النوع الذي يمكن أن يطلق عليه "دس السم في العسل" فقد انتقد بشدة نظام الذمة واعتبره يقوم على التمييز بين المسلمين وغير المسلمين، مع أنه في نفس الوقت انتقد الموقف المسيحي من الذي يربط الإسلام والإرهاب في المرجع الأول الذي أشرنا إليه.

وبالنسبة لهذه التهمة القديمة والحديثة على السواء بشأن أمر الله نبيه أن ينشر الإسلام بالسيف فيمكن الرد عليها بالآتي:

أولاً: العقيدة أمر داخلي يتمثل في علاقة بين الإنسان وربه فهي شيء في القلب وبالتالي لا يمكن أن تفرض وإنما الله سبحانه وتعالى يتجلى بها على عباده فيؤمنون بها، وهناك مظاهر لها، لكن المهم هو الجوهر وهي مسألة لا تفرض بالسيف ولا بغير السيف - لذا ينبهنا الإسلام بوضوح إلى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، كما يقول تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وهكذا نجد آيات كثيرة في القرآن الكريم بنفس المعنى.

ثانياً: الممارسة العملية ترى أن الرسول ﷺ لم يكره أحداً على الدخول في الدين، وإنما كان يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وسأورد هنا أقوالاً لمنصفين غربيين فطنوا إلى هذه الحقيقة وشهدوا بها بوضوح. وسأبدأ برأى عادل خورى نفسه - والذي نقل البابا الحديث الذي أشرنا إليه في البداية - في كتاب "العدل في المسيحية والإسلام" يقول: (هناك مسيحيون يميلون إلى اعتبار المسلمين المتعصبين الذين يدعون إلى الجهاد وتربط وسائل الإعلام بينهم وبين عمليات الإرهاب، كالممثلين الحقيقيين للإسلام. ويغفلون عن الأكثرية في العالم الإسلامي التي تحب السلام وتدعو إليه. وهكذا يتم دوماً الربط بين الإسلام والسيف).

كذلك يقول الكاتب الإنجليزي توماس كارليل (إن اتهامه - أي سيدنا محمد ﷺ - بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم؛ إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقول به الناس أو يستجيبوا له، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب على غيرهم قبل أن يقدروا عليها).

كما تنبه العديد من الكتاب الغربيين إلى ذلك نذكر منهم: جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب وهو يتحدث عن سر انتشار الإسلام في عهده وفي عصور

الفتوحات من بعده - "قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة ولم ينتشر الإسلام إذن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند - التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل - ما زاد عدد المسلمين إلى خمسين مليون نفس فيها.. ولم يكن الإسلام أقل انتشارًا في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط، وسرى في فصل آخر سرعة الدعوة فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونًا في الوقت الحاضر".

والواقع أن القراءة المتأنية لآيات الكتاب الكريم ولسيرة النبي محمد ﷺ ترى كيف أن الإسلام بعيد عن هذه التهمة.

أما الهجوم الجديد الذي قد لا نراه كثيرًا في الكتابات السابقة وإنما ركز عليه البابا بنديكت السادس عشر فهو ما يتصل بأن المشيئة الإلهية في الإسلام منقطعة عن الفعل، وأن تصرفات الله سبحانه وتعالى لا تخضع للعقل ولا للمنطق وهذه فرية كبيرة، وقد اعتمد فيها البابا على ما قرره خوري (إن الله في العقيدة الإسلامية مطلق السمو ومشيته ليست مرتبطة بأي من منقولتنا ولا حتى بالعقل). ويدلل خوري على ذلك بما نقله عن مستشرق آخر (أرنالدز) على لسان ابن حزم الذي يزعم أن الله لا يتقيد حتى بكلام، وأنه لا يجب عليه أن يوحى إلينا بالحقيقة، وإن أراد جعل الإنسان عابدا للأصنام.

وانواقع أن هذه الفرية ليس لها أي أصل في الإسلام وإنما هي في جوهر الأديان الأخرى وخاصة المسيحية حيث عبر عن ذلك القديس النصراني "أنسليم" بقوله إن الإيمان لا يحتاج إلى إعمال عقل".

إن العقل في الإسلام هو أساس التكليف، ولا تقبل عبادة فيه إلا من عاقل، بل لا بد من كمال العقل لقبول العمل. يصدق هذا على الدخول في الإسلام نفسه فيجب أن يكون من يريد الدخول في الإسلام عاقلًا، ومن يؤدي الصلاة عاقلًا، وكذا في سائر الفروض والتكاليف، لذا يرفع التكليف عن المجنون والنائم وكل من فقد عقله.

من ناحية ثانية نجد أن المعجزات التي أتى بها الأنبياء السابقون كانت معجزات

مادية. أما معجزة الإسلام الخالدة فهي تقوم على العقل. القرآن الكريم يحتاج إلى التدبر والتفكر في آيات الله المنظورة والمسطورة على حد سواء.

ونجد الإمام محمد عبده يعبر عن ذلك بوضوح في قوله "إن العقل هو ينبوع اليقين في الإيمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة"، كما يقرر أن الإسلام دعا الناس إلى النظر في العقيدة بعقولهم، فهو معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها، وأنا إذا قدرنا عقل البشر قدره، وجدنا غاية ما ينتهى إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنسانى^(١).

والواقع أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بكل الفضائل التي تتفق مع العقل والمنطق، وقد أحترم الإسلام العقل الإنسانى وجعله فى أعلى منزلة وأرفع مكان، وجعل الإنسان الذى لا يستخدم عقله بمنزلة إنسان قد تنازل عن إنسانيته، وجعل عدم استخدام العقل الإنسانى خطيئة كبرى سوف يسأل عنها الإنسان يوم القيامة.

والله قد بين لنا فى القرآن الكريم أنه خلق كل شىء بقدر، وأن كل ما فى السموات والأرض يسير وفق سنن كونية. وأن كل خلق الله مرتبط بحكم بالغة. وقد دعا القرآن الكريم الناس إلى النظر فى الكون ودراسته والتفكير فى آيات الله وفى العالم وفى الإنسان. وأما أن إرادة الله وعلمه وحكمته لا تحدّها حدود فهذا أمر منطقي لأنه هو نفس الخالق، ولكن المسلم لا يفهم ذلك مطلقاً أن تصرفات الله لا تتفق مع العقل والمنطق.

وفى ضوء هذه التعاليم القرآنية سار علماء المسلمين، فحجة الإسلام الغزالي يقول: "العقل أنموذج من نور الله" ويقول الجاحظ إن العقل وكيل الله عند الإنسان. كما قرر علماء التوحيد أن النظر العقلي يعد أول واجبات المسلم فى مسائل الاعتقاد.

(١) راجع: الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، وراجع المؤلف الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف بجمهورية مصر العربية بعنوان حقائق الإسلام فى مواجهة شبهات المشككين، والذى أشرف على إصداره وتقديم له أ.د. محمود حمدي زقزوق وعلى وجه الخصوص دراسات الدكتور محمد عمارة ص ٤٠٠ بعنوان "الشبهة الرابعة والستون" حول تناقض النقل - القرآن - مع العقل والدراسة التى كتبها أ.د. على جمعة بعنوان: الشبهة الخامسة والستون، الإسلام انتشر بالسيف ويحذ العنف ٤٠٨.

وقد اطلع المسلمون على الفلسفات القديمة ومنها اليونانية وناقشوها مناقشة عقلية وصانوها من الضياع، وقد تعرفت أوروبا على الفلسفة اليونانية لأول مرة عن طريق العلماء المسلمين من الترجمات العربية.

واعتمدت أوروبا على آراء الفيلسوف العظيم ابن رشد بصفة خاصة في دعم الحركة العقلية التي مهدت لعصر النهضة الأوروبية لما عرفوه لديه من تقدير لا حد له للعقل والمعقول.

ومع هذا الاعتداد بالعقل والمعقول فإن المسلمين لم ينسوا أن الله هو الخالق الأعظم مالك الملك، وأنه هو الذى وجههم العقل ولكنه لم يسلبهم الإرادة بل حملهم المسئولية بجعله الإنسان خليفة لله فى الأرض ليعمرها بالعلم، ولا علم بدون عقل.

والواقع أن هناك ملابسات عديدة قد أحاطت بمحاضرة البابا أولها أنه قالها فى ذكرى العدوان على الولايات المتحدة وفى الاحتفالات التى جرت فى الولايات المتحدة وغيرها فى ١١ سبتمبر، فهل نباعد بين الغرض السيئ للبابا وخطابه فى هذه المناسبة؟ معروف أن هذه الواقعة نحت بالتاريخ منحى جديدا جوهره الهجوم على الإسلام ونبيه واتهام المسلمين بالإرهاب وبحب العنف ورفض الآخرين، فماذا يريد البابا من التذكير هنا وفى هذه المناسبة بدعاوى قيام الإسلام على السيف، وعدم احترامه للعقل؟!

إننا قدمنا ردا هادئا على هاتين الدعويتين، ولكن من الواجب علينا كمسلمين أن نظل ندعو إلى الله على بصيرة وبالحكمة والموعظة الحسنة، وأن نبين فضائل الإسلام وغلوه على كل ما يراد به النيل منه.

